ليالى الطفولة

بقلم

لم تكن لى أمنية فى ذلك الوقت الا السكنى فى ذلك ، البيت (المسكون) .. ولم يكن ذلك حبا منى فى الجن والأرواح التى كانوا يدعون أنها تسكنه .. ولا كان عن رغبة فى مشاكستها ومعاكستها .. بل كان كل ما يستهوينى فيه ، هو شجرة التوت العالية التى تطل بفروعها المورقة من الحديقة الصامتة المتوحشة .

كنت وقتئذ فى الثانية عشرة .. وكنا نمر على الدار المسكونة كل صباح عند ذهابنا الى المدرسة .. ولم يكن يلذ لنا شىء قدر أن نمد أعناقنا الصغيرة من خلال قضبان السور الحديدى لنستطيع ماوراءه من أشجار متكاثفة متعانقة .

وكانت الحديقة تبدو لنا أنها بحر خضم لاتكاد تبلغ العين مداه .. وكانت عقولنا الصغيرة تتخيلها مليئة بالسحر والأسرار .

وما زلت أذكر تلك الأيام التى كنا نستيقظ فيها وضوء الشمس لم يظهر بعد . فنتسلل من دورنا خفية لنذهب الى الدار المسكونة قبل

أن يستيقظ حارسها الأسود العجوز .. فنتسلق السور ونقطف أوراق التوت الذى كنا نحتاج اليه لتغذية دود القز الذى كانت تستهوينا تربيته .

وكان بيننا وبين الحارس عم محمد ، وهراوته ، ما صنع الحداد ، وانى لأعجب الآن ماذا كان يود ذلك الأبلة العجوز أن يصنع بورق التوت ، ولأى أمر كان يحرّمه علينا ويجرى وراءنا بهراوته صاخبا مهددا عندما يضبطنا متلبسين بجريمة الشعلقة على السور .

وتطوّر الأمر من رغبتنا فى قطف ورق التوت الى رغبتنا فى معاكسة عم محمد واستثارة غضبه .. والعبث به ، والسخرية منه . والواقع أننا قد برعنا فى هذا الأمر وتفننا فيه . وانى لأذكر ذلك اليوم الذى وطدنا فيه النية على أن نقتحم الحديقة .. ونرتع فيها كما نشاء .. ونستكشف خباياها ونستطلع أسرارها .. وذهبنا الى الدار ومع كل منا هراوة وقد صممنا على ألا نفر من عم محمد .. بل نواجهه مواجهة الند للند .. ونطلب اليه أن يسمح لنا بالدخول ، فان رضى كان بها ، وان أبى فهو الجانى على نفسه .. وهو المسئول عما سيحدث له نتيجة العلقة الساخنة التى صممنا على أن نعطيها له .

وعندما وصلنا الى الدار لم نجد صاحبنا على بابها .. ووجدنا الباب غير مغلق .. وناديناه فلم يجبنا أحد .. وخشينا أن تسللنا أن يكون الرجل قد وضع لنا كمينا ، فترددنا برهة ، ولكن أحدنا وهو محمود .. (أدى بولو) (هكذا كان يسمى نفسه تشبيها بأحد أبطال السينما) كان أكثرنا جرأة وأشدنا عفرتة .. فاقتحم الباب بخطوات ثابتة .. واختفى داخل الحديقة .

وبعد برهة قصيرة سمعنا منه صفارة طويلة ورأيناه قد أقبل فى تؤده وقد وضع يديه فى جيوبه كأنه يسير فى حديقة الخاصة .. ثم أشار الينا بكبرياء أنه يمكننا الدخول .

ولكننا ترددنا وسألناه فى أصوات هامسة :

– وعم محمد ؟

– لقد سجنته .. وكفى الله المؤمنين القتال .

ثم علمنا منه أنه وجده منهمكا فى الصلاة فى حجرته .. فما كان منه الا أن أغلق الباب عليه بالمفتاح ووضع المفتاح فى جيبه ، وترك الرجل يصلى فى هدوء ما شاء له أن يصلى .

وكان يوما مشهودا من الأيام التى لايجود بمثلها الدهر ، أو هكذا هو على الأقل ما كنا نظن وقتئذ .

هذه الحديقة الساحرة العجيبة التى كنا ننتشى لمجرد أن نمد فيها رؤوسنا من بين قضبان السور الحديدى .. قد أضحت اليوم ملكا خاصا لنا لايشاركنا فيها أحد .. وعم محمد عدونا اللدود .. قد أضحى حبيسا مع هراوته .. لايملك كلاهما لنا ضرا ولا أذى .

وكان الوقت ربيعا ، وكل ما فى الحديقة ملوّن مزدهر وأشجار المشمش قد رصعت بالزهور البيضاء كأنها فصوص الماس ، وأزهار البرتقال قد تفتحت وفاح منها العبير وانتشر الشذى ، والنباتات كلها تكاد تتفجر من فرط الحياة .

وانطلقنا فى أنحاء الحديقة .. وتسلقنا أشجارها ، وقطفنا الزهور والثمار ، وأغرقنا الحديقة بالمياه ، وعشنا ما شاءت لنا طفولتنا أن نعبث ونمرح ، ومثلنا كل أدوار البطولة التى رأيناها على الشاشة البيضاء من (طرزان) و (توم ميكس) .

وأخيرا .. وبعد أن أعيانا التعب .. وبعد أن استنفذنا كل ما نملك من قوى فى الجرى والقفز .. وبعد أن انتهت كل ما لدينا من وسائل

اللعب .. وبعد أن قلبنا أعلى الحديقة أسفلها ، وأسفلها عاليها ، وشققنا فى أرضها (حوض البحر الأبيض) و (نهر النيل) .. ورفعنا فيها (جبالا الهملايا) ، و (هضبة التبت) ، وصنعنا من أفرع الشجر سفنا ومعابر وأكواخا وقصورا .. ولم نترك زهرة واحدة باقية على فروعها ، ولا طيرا واحدا هادئا فى وكره .. أخيرا .. وبعد كل هذا فكرنا فى العودة الى دورنا .

وهنا وجدنا أنفسنا فى مأذق حرج . ماذا نصنع بعم محمد ؟ لم يكن أمامنا الا أحد أمرين : اما أن نتركه فى سجنه فيموت جوعا .. واما أن نفتح له فيميتنا ضربا .

وفيما نحن حيارى .. رأينا (ادى بولو) يتركنا ويعدو الى آخر الحديقة ثم يعود ومعه حبل طويل ورأيناه يخرج المفتاح من جيبه فيربطه فى طرف الحبل ، ويعطيه لأحدنا ويأمره بأن يمسك به جيدا .. ثم يسير هو بالطرف الآخر فيذهب الى حجرة الرجل .

وطرق الباب بيده طرقة خفيفة ونادى :

– عم محمد .

وهنا سمعنا صياحا وضجيجا كأن فى الحجرة ثورا هائجا وعلت من الحجرة ألفاظ السباب .. ووصلت الى آذاننا كلمات التهديد والوعيد ، فشعرنا بالفزع والخوف .. وانتهز (ادى بولو) لحظة صمت من الرجل فصاح به :

– اسمع ياعم محمد .. اذا كنت تنوى أن تستمر على هذا الهيجان والحمق فلن نكون مسئولين اذا تركناك تموت جوعا فى حجرتك كالكلب الغبى .. واذا كنت تريد الحياة فاسمع الى .

وسكن الرجل وأصغى .. فاستمر صاحبنا في الحديث :

– سأعطيك المفتاح من أسفل الباب .. ولكن ليس مباشرة حتى لاتفتح الباب المفتاح وتلاحقنا بهراوتك ، بل سأعطيك طرف حبل ربط المفتاح في آخره .. فما عليك لكيْ تأخذ المفتاح الا أن تستمر في جذب الحبل .. حتى يصل اليك المفتاح .

ثم مدّ يده فأدخل طرف الحبل من أسفل الباب واتجهنا الى باب الحديقة ومعنا الحبل الذى ربط به المفتاح وأخذ الرجل يجذب الحبل من ناحية ، ونحن من ناحية فما وصلنا الى الباب حتى كان الحبل قد امتد بطوله بين الحجرة وباب الحديقة ، فألقينا المفتاح ، وولينا الفرار .

وعدنا الى دورنا .. كأننا لم نرتكب أمرا ادًا ، ولا فعلا نكرا ، وتسللت من الباب واتجهت رأسا الى الحمام حتى أزيل ما علق بى من طين وأوساخ .

وذهبت الى حجرة الأكل ، ودار الحديث بين أبى وأمى عن أن البيت الذى نقطنه لم يعد صالحا لنا ، وأنه يفكر في الانتقال الى بيت أوسع ، وأنه لايدرى ماذا يمنعنا من أن نستأجر البيت الذى يدعى الناس أنه (مسكون) فليس هناك في الناحية بيت فى مثل فخامته ولا ضآلة أجره .

وكدت أقفز من مكانى لفرط الفرح وصحت بأبى :

– أقسم لك أنه ليس مسكونا ، وأن الأمر لايزيد على اشاعة كاذبة .

وشعرت بيد أمى تمتد من خلف المنضدة ، فتقرضنى قرصة لاذعة في اللباليب ، وتنهانى زاجرة ثائرة :

– لقد قلت لك ألا تتدخل فيما لايعنيك .. كل وانت ساكت .

ثم وجهت الحديث الى أبى ، وشرر الغضب يتطاير من عينيها :

– لم أر فى حياتى قط من هو أسخف منك الا ولدك ولا من ولدك الا أباه .. أتريد منى أن أقطن في هذا البيت الموحش المخيف ، ان السكنى فى المقابر خير عندى وأفضل !

ولكنى أبى – بارك الله فيه – استطاع أن يقنع المرأة العنيدة بأن تذهب لترى البيت ، فقد يتغير رأيها عندما تراه .

ولو أخبرونى وقتئذ أننى قد صرت امبراطورا للعالم لما كانت فرحتى بأشد منها عند ما عادت أمي وأخبرتنا أنها قد وافقت على الانتقال الى البيت (المسكون) .

وكان فرحى فى الواقع قد بلغ حد الجنون ، حتى لقد رحت أرقص فى الحجرات من فرط الطرب .. من كان يظن هذا ؟

هذه الحديقة الواسعة ستصبح حديقتنا وشجرة التوت ستصبح كلها ملكا لي .. وسأدخل صبية الناحية ، يأخذون من ورقها ما شاءوا .. وهم آمنون مطمئنون من شر عم محمد .

ولم يكد يخطر على بالي عم محمد حتى قفزت من مكاني كأن بى مسا من جنون ، وصحت أخاطب نفسى :

– عم محمد ! (وقعت والا الهوى رماك) ، من كان يتخيل أن هذا الحيوان الأسود العجوز ، الذى طالما نالنى من هراوته الشيء الكثير .. سيصبح تحت رحمتى .. لقد أصبحت من الآن سيده ، سأثأر منه لكل أطفال الناحية .

وانتقلنا الى دارنا الجديد ، وكان فرحنا بها لايقدر ، فقد كانت الدار فاخرة حقا .. وكانت بها كل وسائل الراحة والرفاهية .. وكان من السخف أن نترك مثل هذه الدار طوال تلك المدة الطويلة . لا لشيء الا لمجرد اشاعات كاذبة أنها مسكونة بالجن والأرواح .

وكان يبدو على عم محمد أنه لم يكن مرتاحا لسكنانا فقد أخرجناه من مكمنه وأزعجناه فى مأمنه ، وحرمناه من هدوئه الذى اعتاده وسط الدار الفسيحة ، الخاوية على عروشها .

وأزعجه أكثر من ذلك وحزّ فى نفسه أن هؤلاء الصبية الذين كانوا يخشون جانبه ، ويفزعون من رؤيته .. قد باتوا يأمرونه فيذعن للأمر ، ويزجرونه فيزدجر ... وفقد سلطانه عليهم وعلى الدار .. فاستباحوا حماها .. وانتهكوا حرمتها .

ومرت الأيام ونحن نرتع فى الدار ونمرح ، حتى حدث ذات ليلة ما روّعنا وملأ نفوسنا فزعنا .

سمعنا صوت أنين بدأ خافتا ، ثم أخذ يعلو رويدا .. رويدا ، ثم انقطع فجأة .. وفى الصباح نقب أبى فى أنحاء الدار عله يعثر على مصدر الأنين ، فقد يكون قطة مريضة أو كلبا جريحا ، ولكنه لم يعثر على شيء .

وفى الليلة التالية سمعنا الأنين نفسه ، وزاد عليه بعض الصراخ الذى جعلنا نكمش فى أغطيتنا ، وجعلت أمى تقسم أن تترك الدار عندما تشرق الشمس .

وفى الصباح أرسل أبى فى طلب عم محمد وسأله عن سر ذلك الأنين والصراخ ، فأطرق الرجل برهة ثم أجاب :

– انه صوت الفتاة السجينة .

وسأله فى دهشة :

– الفتاة السجينة ؟ هنا فى الدار فتاة سجينة ؟

وهزّ الرجل رأسه ببساطة علامة الموافقة ، فصاح به أبى فى سخرية :

– ومن الذى أجبرها على أن تظل سجينة حتى الآن ؟ ولم لاتنطلق الى حيث تشاء ؟ وفى أى حجرة تنزل هذه السجينة الحمقاء ؟

– انها فى البدروم يا سيدى .. وقد سمعت قصتها من أبى الذى سمعها من جدى .. لقد قال لى هذه الدار كان يملكها فى غابر الزمان أمير كريم المحتد .. عريق المنبت وسيم الطلعة ، متين البنيان ، وكان يعيش فى الدار مع أمه وأختيه .. وكانت أمه تود أن تزوّج ابنها باحدى الأميرات ولم يكن لدى الأمير اعتراض على ذلك . فقد كان خالى القلب ، وسارت الأمور على خير حال .. حتى حدث ذات مرة أن صدمت عربة الأمير فتاة فقيرة فى عرض الطريق ، فجرحت الفتاة ورق الأمير لحالها فحملها الى بيتها وأحضر لها طبيبا وداوم على زيارتها والعناية بها .

وبرأت الفتاة من جرحها .. ولكنها وجدت نفسها قد أصيبت بجرح آخر أعمق أثرا ، كان من العسير عليها شفاؤه اذ كان جرحا فى القلب لا فى الجسد ، فقد أحبت الفتاة الامير حبا يائسا ووجدت نفسها تتخبط فى هوى لا أمل فيه .

ووجدت الفتاة أن الأمير لم يكف عن زيارتها حتى بعد برئها ، وأن عطفه قد ازداد عن ذى قبل .. وأخيرا اتضح للفتاة ان الأمير قد بات هو الآخر صبا مولعا .

واندفع الأمير في تيار الهوى فتزوج الفتاة وحملها الى الدار .. وقدمها الى أختيه . فأصابهما الذهول ، ولكنهما تمالكتا نفسيهما ، وتصنعتا الترحيب بها .

وأحنق الأم أن يتزوّج ابنها مثل هذه الفتاة الفقيرة .. ولم تطق الفتاتان وأمهما أن تصبح الفتاة الوضيعة الأصل ربة الدار .. فعقدن النية على التخلص منها بأى حال .

وفي ذات يوم غاب الأمير عن الدار في رحلة تستغرق بضعة أيام ، فاستدرجن الفتاة الى القبور بالبدروم ودفعن بها الى داخله وتركنها حبيسة فيه .

وظلت الفتاة في القبو مذهولة مشدوهة ، ثم بدأ الجوع يمزق أحشاءها ، فأخذت تستنجد وتستغيث ، وعلا أنينها وصياحها حتى بحّ منها الصوت وارتمت جثة هامدة .

وعاد الأمير من رحلته فأنبأوه أنها فرت هاربة .. فجن الرجل .. وترك البيت هائما .. هذه هي القصة يا سيدى .. ومن يومها والأنين والصياح لاينقطعان أبدا من القبو .

وانتهى حديث عم محمد وبدا علينا التأثر واستقر الرأى على أن نغادر الدار بمجرد العثور على دار أخرى .

واجتمعت بأصدقائى من الصبية ، فقصصت عليهم النبأ ، فأحزنهم أن يحرموا مرة ثانية من الحديقة .. وأن يعود (عم محمد) الى مطاردتهم بهراوته .

وانصرف الجميع .. ولكن محمود أو (ادى بولو) لم ينصرف .. ورأيته يقترب منى ويهمس فى أذنى أنه يخشى أن يكون فى الأمر دسيسة

من عم محمد يراد بها اخراجنا من البيت .. ثم اتفق معى على أن نتسلل ليلا لمراقبة عم محمد والتقينا فى الليل واختبأنا خلف شجرة أمام حجرة عم محمد وأخذنا ننتظر .

ولم تمض برهة قصيرة .. حتى رأينا الرجل قد خرج من حجرته يمينه ويساره .. ثم بدأ يخرج ذلك الأنين والصراخ الذى كان يملؤنا فزعا وهلعا .

وعاد الرجل الى الحجرة ، وطلب منى صاحبى ألا أخبر أحدا بما يفعله عجوز النحس .. وأن أقابله فى الليلة التالية ، واتفق معى على الدور الذى سنقوم به .

وفى الليلة التالية سبقنا الرجل الى القبر ، وانتظرناه هناك قابعين فى الظلمة ، وعندما سمعنا وقع أقدامه تقترب بدأ صاحبى يصدر من فمه أنينا يشبه ذلك الذى يصدره العجوز ، فوقف مكانه متسمرا لا حراك به وقد عقد الفزع لسانه ، وبدأت أنا أتكلم فى صوت خشن مقلدا صوت الرجال :

– ماذا يبكيك يافاتنتى ؟

وردّ صاحبى مقلدا صوت الفتاة :

– لقد سجنونى فى القبر ، وتركونى بلا طعام ، وأشعر بالجوع يلهب أحشائى .

– اطمئنى يا حبيبتى .. فانى سأحضر لك طعاما شهيا .. سأحضر لك لحمة رأس أسود عجوز ، ولكنها بلا مخ .. لأن صاحبها أحمق شرير .

ولم يكمل صاحبي حديثه ، فقد سمعنا عم محمد يصرخ صرخة مدوية ، ورأيناه يولى الأدبار كأن به مساً من شيطان رجيم .

وفى الصباح لم نر لعم محمد أثرا فى حجرته .. فقد فرّ من البيت .. ولم نعد بعد ذلك نسمع أنين الليل وعويله ، ولم يعد أحد يدعى بعد ذلك أن البيت مسكون .. اللهم الا رجلا واحدا .. كان يؤمن فى قرارة نفسه أن البيت مسكون حقا .. ولم يك يجسر أن يقترب منه قط . وذلك هو عم محمد .

* * *